

الشيخ طاهر الجزائري

تأليف الدكتور عدنان الخطيب

مشتورات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة

- ١ -

تظل شخصية الشيخ طاهر الجزائري احدى الشخصيات البارزة في حركة النهضة في بلاد الشام .. ان اثره لا يقتصر على الدروس التي القاها ، والطلقات التي عقدها ، والكتب التي ختفها ، والاعمال التي قام بها ، وانما يتجاوز ذلك الى عديد من الشخصيات التي اثير فيها توجيهها او تنشئة او رعاية .. وذلك هو الذي دفع الاستاذ محمد كرد علي ان يقول عنه : « استاذنا العلامة الشيخ طاهر الجزائري في هذه الديار كالاستاذ الامام محمد عبده في مصر » . والدكتور عدنان الخطيب معني ، فيما هو معني به من دراساته بمعرفة هذه الحقبة من تاريخنا ، لان حياتنا الحاضرة في كثير من وجوها ليست الا نتجة عنها واثرا لها .. ومن ذا الذي يستطيع من جيلنا - هذا الذي يحيى كما تعودنا ان نقول ، ازمانتنا العربية الكبرى - ايا كان اختصاصه الاصيل ، ان ينصرف عن هذا التاريخ وان يغمض عينيه عن هذا الواقع وان يتوجه مطمئنا الى بوعنه النظرية ، وهو يحس الضربة اثر الضربة تكاد تهز وجوده ، والنكبة وراء النكبة تريد ان تذهب بهذا الوجود ؟

ما من عجب اذن ان ينصرف الدكتور عدنان الخطيب الى شيء من التاريخ ومن تاريخ الفكر بوجه خاص .. ولكنه لا يريد التاريخ احيانا متتابعة او سنوات متلاحقة ، او اسماء كبيرة من هذه التي تطفو على السطح ، وانما يريد من التاريخ جانبه الاخر الذي يتصل بروح الامة وفكرها ، في حركة الفكر وفي نبض هذه الروح ، في الاراء التي داخلتها ، والمذاهب التي وردت عليها ، والاهواء التي تغطتها ، والاتجاهات التي ذهبت بها ، والاسماء التي كان لها في توجيه هذه الروح اثر ، وفي هدايتها وصيانتها او فسي الانزلاق بها وانحرافها عمل .

ولهذا اثر ان يقف عند شخصية الشيخ طاهر الجزائري وعند هذه الطائفة من الذين تابعوه او تأثروا به مثل محي الدين الخطيب وسعيد الباني وسليم الجزائري ومحمد كرد علي ، لانه كان لهم في حركة النهضة العربية وفي سير الحياة الفكرية في بلاد الشام اثر ابي اثر . فعرض لاطراف من سيرتهم ، وجلا جانباً من افكارهم ، وعرض لمواقف من مواقفهم ، ووضع هذه السيرة وهذه الافكار في مكانها من حركة الجماعات العربية ليستبين القارئ ما الذي كان وراء الاحداث ، وليستجلي طائفة من العوامل الخلفية التي كانت تتحكم بها او توجهها .

- ٢ -

وقد اوضح الدكتور عدنان الخطيب منهجه هذا منذ البداية . الكلمات الاولى التي قدم بها لكتابه نمت عن هذا الاتجاه وكانما كانت تريد ان تهز القارئ ، ان تثيره ، لتقول له انك لن تجد اسماء وتراجم ، ولن ترى احيانا وصورا ، وانما ستواجه طائفة من الحركات والتيارات كان لها اثرها الكبير فيما بعد . المقدمة القصيرة اذن ذات الاسطر المعنودات لم تكن تقديمها للكتاب فحسب ولكنها كانت وقوعا على اعماقه ، وكشفا لطرف من

الستار عن هذه الاعمال ، ودعوة من المؤلف الى تعميق النظر واجتلاء الافاق .

لهذا كان الدكتور عدنان يقول في المقدمة : « انا لا اترجم ، في هذه المحاضرات ، لرائد من رواد النهضة العربية فحسب ، وللطائفة من اعلام تلامذته ، يمثل كل واحد منهم في حياته وآثاره العلمية نهجا خاصا في دروب هذه النهضة .. بل انا اصور مع هذا وذاك واقفا مرت به اكثر الاقطار من بلادنا العزيزة ، وكانت تصصف بها خلاله عوامل خفية اورثتنا بعض ما نحن فيه من فرقة واختلاف رأي ، وانتهت بنا الى حال لا تسر الا الذين يكرهون العسرب والاسلام .

هل تؤلف هذه العوامل الخلفية منطلق الكتاب وغايته كذلك ؟ اجل .. لقد كان الكتاب مرتها بهذه العوامل . بداءته منها وعودته اليها . نظرتة الاولى الى الشخصيات والاحداث ، ونظرتة الاخرى الاعمق الى هذه العوامل : اشارة اليها حيناً ، ودلالة عليها حيناً اخر ، او تبصيرا بها في كل حين .

ومن اجل ذلك لم يلبث المؤلف ان تابع في التقديم الحديث عنها ، هذه العوامل ، ورأى انه « قد قلّ في كتابنا ومؤرخينا من جرؤ على التصدي لدراسة تلك العوامل او حتى على الاشارة اليها » .

الا يمثل هذا دعوة حارة واغراء مقربا بمتابعة الكتاب ؟ . ولكن المؤلف لا يقصد الى هذا الاغراء قصدا ، ولم يكتب المقدمة لهذا .. ان عمله كله - فيما يبدو لي - بعيد عن ان يكون بابا من ابواب الحديث والبيان او العمل التأليفي الذي لا هدف له .. انه - وهذا هو الذي يميزه - عمل هادف بالمرجة الاولى .. هدفه ان يزيح هذا الستار الذي لم تمتد اليه يد المؤلفين .

وواضح ان الاستاذ المؤلف أحس ان الذي يقدم عليه لن يكون سهلا ولا يسيرا ، لن يكون حلو المذاق في الفهولا هين الوقع على النفس ولا سهل التقبل في الواقع .. ولكنه آثر الحقيقة ، مفلسة احيانا بعض تغليف - على السكوت ، ومرارة الدواء على خدرالداء . (وغدا ، قد آجد من ينكر عليّ تدوين بعض الحقائق في هذه المحاضرات ، لان مرارتها سيصعب تقبلها عند بعض الناس وعلمي في ذكرها - وقد حان الوقت للفادة من عبرها - ان مرارة الدواء لا تسوغ حجبها عن اعز الاعزاء) .

- ٣ -

ولكن ما هي هذه العوامل الخفية التي اراد المؤلف ان يلفتنا اليها ؟

ان المؤلف لا يضعنا مباشرة بعد ، امام هذه العوامل ولا يفتنا عليها وجها لوجه . انه اثر هذه المقدمة التي نقلت لك اكثر عباراتها ، يمضي فيتحدث في عدد من الفصول عن شخصيات وظواهر : في الفصل الاول يتحدث عن العهد العثماني في بدايات النهضة ، يسوق ذلك وكانه المدخل .

وفي الفصل الثاني يتحدث عن الشيخ طاهر ، وبخاصة عن هؤلاء الذين التقوا به وتحققوا حوله : محي الدين الخطيب ، ومحمد كرد علي وسعيد الباني وكاظم الجزائري .

وفي الفصل الثالث يتحدث عن الشيخ طاهر الرجل : نشأته وهجرته ، والمعلم : وظائفه الاولى .

وفي الفصل الرابع يتحدث عن الشيخ طاهر المصلح : عن التفاهة بمدحت باشا وعن جهوده الاصلاحية

وفي الفصل الخامس يتحدث عن الشيخ طاهر الرجل السياسي . وفي الفصل السادس يتحدث عن الشيخ طاهر الرجل المفكر ، ويشبت نماذج من رسائله ، ويكتب نبئا بمؤلفاته .

وقد يتداخل بعض من هذه الجوانب في بعض ، وقد تؤثر ان يكون مكان بعض الفقرات من هذا الفصل في مكان اخر من فصل

ولكن هذه الرحلة الهائلة ، التي تشترك بكثير من المنفعة وبكثير من الفائدة ايضا ، رحلة هادفة تريد ان تستقر بك عند خلاصة الاحداث وخلاصة المواقف وخلاصة الرجال . . تريد ان تضعك عند الروح في حركة المجتمع لتشير عندك الاحساس بان هذه الروح العربية لم يبق لها صفاؤها ، ولم تحتفظ بسيرتها . . داخلتها هذه الاشياء التي وردت عليها ، وقدمت لها افكارا واتجاهات لم تكن في حاجة اليها . . كان وراء هذه الافكار والاتجاهات سياسات اجنبية ضربت الاتراك بالعرب ثم فتتت العرب ، ثم جاءت تضرب قطرا بقطر ، ثم اخذت بعد ذلك تجهز على العرب جميعا بالصهيونية .

- ٥ -

المشكلة الكبرى في هذا الكتاب ان صاحبه تحدث عن اشياء خطيرة من خلال الحديث عن الشيخ طاهر . . اكان المؤلف يقصد قصدا الى هذا الخط الزدوج : خط مدرسة الشيخ طاهر من نحو ، وخط الحياة العربية المعاصرة من نحو اخر ، ليرتك للقارىء ان يربط بينهما كيف شاء وحيث شاء ؟

اغلب الظن ان اقامة الكتاب على هذا النحو لم تكن عملا عفويا ، وانما كانت عملا مدروسا ، كما تقول اليوم . . واذن فقد كان الدكتور الخطيب يريد ان يلقي بهذه الاشياء في ذهن هذا الجيل الجديد عن طريق هذه الطائفة من الاسماء والاحداث والظواهر ، وان يزرع عنده احساسا اعمق بالقضايا ، ونفاذا ابعد الى ما وراءها .

ولكن اذ تطمن الى هذا الذي كتبه المؤلف لا تجد غنى ان تتساءل : السنأ في حاجة الى قدر اكبر من الوضوح ومن الصراحة فسي دراسة هذه الاشياء ؟ ما الذي يحول بيننا وبين ان نكشف القطاء ، ان ننزعه نزعا عن كل هذه اللامسات ؟ هل تسمح البقية الباقية من الوجود العربي ان نعيش على اشياء من الرموز والتلويح ؟

عذر المؤلف انه ليس المؤرخ ، المنقطع للتاريخ . . عذره انه وصل الى هذه الاشياء عن طريق اخر غير التاريخ المباشر . . ولذلك عرض لها هذا العرض . اتراه العذر الذي يقنعك ؟

- ٦ -

وبعد فهناك اخطاء الطباعة قد لا ينجو منها كتاب . . ان جهد المصحح لا ينهض دائما كفاء عناد بعض المطابع . ولو كان لي ان اتمنى للكتاب في طبعته الثانية شيء - غير ان يتابع صاحبه تحطيم جدار الصمت حول هذه البدايات في حركتنا العربية وفجواته فيه - لتمنيت :

١ - ان ترتب رسائل الشيخ طاهر ترتيبا تاريخيا ، ما كان ذلك ممكنا .

٢ - ان يكون هناك جدول بالاحداث البارزة ، مقترن بالتاريخين الهجري والميلادي ، في اخر الكتاب .

٣ - ان يكون هناك سرد للمصادر . . فلا غنى عن ذلك في مثل هذا البحث للذين قد يتابعونه او يتابعون بعضا من قضاياه .

٤ - ان يكون هناك فصل تعريف ببعض الاسماء وبعض الكتاب .

ان كتاب الدكتور عدنان الخطيب ، وان كان اكثر تركيزه على الحركة العربية في بلاد الشام ، يظل عونا للانسان العربي المثقف ابن كان ، حين يريد ان يعرف من قضايا بلاده ووطنه ما يجب ان يعرف . . انه نقطة مضيئة في حياة هذا الجيل الذي غم عليه الامر واوشكت ان تنقطع به الاسباب بالماضي البعيد جهلا به ، وبالماضي القريب شكوكا حوله . . وانه كذلك تأكيد رائع على خصب التربة الطيبة لهذه المدينة الطيبة التي انبتت مثل هؤلاء الرجال الطيبين الذين كانوا عصبا من اعصاب النهضة وروحا من روحها .

شكري فيصل

دمشق

غيره ، وقد يكون لك في النظر الى بناء العمل كله ، رأي مصدره اعجابك بالمادة الخصبة التي انطوى عليها والتنبه العاد الذي كان يتغللها . . ولكنك لا تملك وانت تقرأ الكتاب ان تفكر في ذلك وان تتوقف عنده . . فالتعة التي يسوقها اليك والافاق التي يقودك اليها ، تدفعك الى ان تتجاوز ذلك . . لا لان الاسلوب - بناء وصياغة وتفصيل - هو الرجل وليس في اوسع ان نحمل انسانا على ان يكون انسانا اخر . . لا لهذا فحسب ، ولكن لانك تفضي مشدودا الى متابعة التساؤل عن هذه العوامل الخفية « التي اورثتنا بعض ما نحن فيه اليوم من فرقة واختلاف » .

وستجد بعض هذه العوامل في الفصل الخامس في حديثه عن اساليب الكفاح السياسي وعن الجمعيات السرية من بين هذه الاساليب . وفي رأي الاستاذ المؤلف ان الماسونية وهي واحدة من هذه الحركات السرية - كانت اخطر ما ابتلي به هذا الوطن واقساه عليه في الفترة الاولى من كفاحه ثم في الفترات التي تلت بعد ذلك .

ومصدر هذه الخطورة فيما يبدو من حديثه - وان كان لا يواجه بذلك مواجهة واضحة ، ولا يوجه اليه توجيها حادا - ان هذه الماسونية تركت آثارها السيئة من نحوين كبيرين .

احدهما : السرية التي تجلبت بها . والسرية في العمل السياسي الذي يتناول الكيان والجمهير والمستقبل والوجود تقود الى اخطر النتائج ، لانها تحجب الحقائق ، وتسير الناس وراء سراب متخيل ، ما اكثر ما يكون خادعا ، وتباعد بين الناس وبين الوضوح الذي هو شرط الالتزام ، وتضلل الملايين حين تلبس عليها امرها .

ان هذه السرية لا يمكن ان تقود الى خير ، وافترض صفائها ونقاها وخلوصها يتعارض مع سريتها ، ويجب ان نفرق دائما بين السرية في العمل وبين السرية في الفكرة . . ولقد كانت الماسونية مضاعفة السواد : في الفكرة والعمل معا .

والثاني : ان هذه الماسونية استخدمت ابشع استخدام في تقبيل المجموعة العربية الاسلامية . . لم تكن اصلاحا اجتماعيا مرسوما ، ولم تكن حركة سياسية واضحة ، ولم تكن لها جذور في الماضي ولا اصول منه ، ولم تكن نبعه من النبعات التي تنبثق عن واقع الحياة والمجتمع ، ولكنها اجتلبت اجتلابا لتكون ركوبا من هذه التي ركبها تنازع السياسات الاستعمارية الفرنسية والانجليزية استتبع بالتالي انقسام الماسونية الى وجهين سياسيين .

والحق ان هذا الفصل من الكتاب - على تكامل الفصول واستواء ما بينها في غايتها القريبة والبعيدة - يوشك ان يكون تجسيدا لما اراد المؤلف ان ينهيه اليه في التقديم ، وان يرشد اليه في الفصول الاولى ، وان ينتهي اليه من غاية في الكتاب .

- ٤ -

ان المؤلف يقودك في هذه الرحلة الممتعة تقرأ سيرة هؤلاء الرجال النماذج . . تلقاهم فتانس بهم وتفيد منهم . . تتابع خيوطا من خيوط حياتهم ومشاهد من مشاهدنا . . تسعدك آراؤهم حين يعرض آراءهم ، ويشرك تبهم حين تترك انما نقول الان مثل الذين كانوا يقولون من قبل نصف قرن او يزيد . . ويفررك الانفعال حين ترى ان العرب اليوم حيث كانوا بالامس ، بل لعلمهم - اذا راعينا خطى الشعوب الاخرى والتقدم العلمي - كانوا خيرا مما هم اليوم . . انك تفرح اذ تتكشف لك شخصية مثل شخصية الشيخ سعيد الباني واذ يفجؤك اسلوب مثل اسلوبه ، وتروعك نظرات الشيخ طاهر الرائدة ، وتأخذك المواقف الصلبة من مواقف سليم الجزائري ، وتستعيد ان كنت من الذين راوا الاستاذ كرد علي واستمعوا له وقراوه ، صورته وحركته وتفكيره .